الدّرس الثاني
تاريخ الفكر اللساني عند العرب
والغـرب في القرنين التاسع عشر و العشـرين

أولّا– الفكر اللساني عند العرب:

لم يثبت عند العرب أنهم تناولوا أي نوع من الدّراسات اللغوية قبل الإسلام، ولهذا فهم متأخرون عن كثير من الأمم التّي تناولنا بعضها في هذه المطبوعة، وبدءا لا يعنينا صحة تأثرهم بغيرهم أو تأثيرهم فيمن جاء بعدهم فهذه المحاضرة كسابقتها لا تبحث في ذلك، وإنما تتعرض إلى الوصف فحسب ودون مقارنة، ومن أراد البحث في ذلك والتّوسع فليعد إلى كتاب أحمد مختار عمر المعنون بـ: "البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التّأثير والتّأثر" وتحديدا "الباب الثالث" بفصليه الأول والثاني.

كانت اللغة التّي يتكلّمها عرب الجاهلية ممن يحتج بلغتهم خالية من اللحن، أما ما مسه فسمي لغة شاذة أو نادرة، وهو الحاصل في لغات القبائل التّي كانت تجاور الأمم الأعجمية. أما المجمع عليه من القدامى أنه لا لحن في الجاهلية، فقد ظهر حينما اختلط العرب بالأنباط والفرس، ودخل الإسلام الأجانب، وذلك لا يكون إلا بعد ظهور الإسلام بقليل[1]. وتذكر الكتب عددا من الأمثلة التّي تفيد وقوع اللحن في السّنة العامة، وأظهرها تسكين أواخر الكلم هربا من الإعراب. وما فتئ أن تسرب اللحن إلى تلاوة القرآن. ومس اللغة العربية إجمالا في ألفاظها فزيد فيها وحذف وقدم وأخر، وقُلب وأُبْدِل، وسُكِّن ما حقه التّحريك وحُرِك ما حقه السّكين، كما مسها في جملها بالنحت فأصبحت الجمل العربية اختصارات لفظية، كما مسها من جهة صفائها بأن أُدخل فيها من اللفظ

1 – الدّراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث الهجري، مُحَمَّد حسين آل ياسين، ص34-35.

الأعجمي ما لم يكن قبل ذلك، مما أصبح عربيا بالاستعمال والخضوع لقواعد العربية في الجاهلية، وبمرور الزمن واتساع نطاق اللحن ظهرت العاميات، ونتيجة لهذا الخطر الدّاهم على اللغة الفصحى فكر أهل العربية الغيارى من علماء ورجال الدّولة في طلب حمايتها وصيانتها[2].

إن صيانة العربية الفصحى من اللحن لم يكن إليه طريقة إلا تحديد المثال لها زمنا 150 سنة قبل البعثة و150 سنة بعد البعثة، ومكانا؛ فالذين نقلت عنهم العربية وأُخذ اللسان منهم من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد هم الذين أُخذ عنهم أكثر العربية ومعظمه وعُدُّوا المرجع في الإعراب والتّصريف، ثم هذيل، وبعض كِنانة، وبعض الطّائيين، ولم يؤخذ من غيرهم من سائر القبائل[3]. وأخذ العلماء اللغة من بيئة الاستعمال حتى أنهم أخذوها من لسان الصبية أو الأطفال أو النساء والعبيد والمجانين[4]. وعملية الأخذ تلك هي عبارة عن جمع المادة اللغوية من أفواه العرب الفصحاء، وذلك بالذهاب إليهم في بواديهم أو بلقيهم في الحواضر، ثم نقل ذلك للدارسين من الطّلاب، وبحسب ما ورد في النصوص القديمة فإنها لم تبدأ قبل نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجري. والعملية المذكورة سلفا تسمى اصطلاحا الرّواية، ودفع إليها التّفسير اللغوي للقرآن، والحديث وغريبه والشعر، والاعتزاز باللغة وصيانتها من اللحن، والتّوسل بها من غير العرب إلى تبوأ مكانة مرموقة في المجتمع العربي، ومنها أخيرا الحاجة العلمية في ذاتها كوضع الضوابط النحوية. وقد مرت الرّواية اللغوية بمراحل، الأولى: رحلة اللغويين إلى البادية التّي يحتج بلغة قبائلها، وسماعهم من قاطنيها، والإقامة بينهم مدة قد تطول وقد تقصر، ثم العودة إلى الحواضر (مواطن الدّرس) لعرض المادة في المجالسّ والحلقات وإملائها على طلاب العلم. وكانت البصرة ثم من بعدها الكوفة المدينتان اللتان لهما السّبق في الرّواية[5].

---

2 – الدّراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث الهجري، مُحَمَّد حسين آل ياسين، ص36-40، والبحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص83-88.

3 – المزهر، السّيوطي، 211/1.

4 – المرجع نفسه، 139/1-141.

5 – الدّراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، مُحَمَّد حسين آل ياسين، ص65-66.

ويمثل اللغويون الأوائل الرّواة الأوائل الذين رحلوا للبادية ونزلوا بين أهلها، ومنهم ابن أبي إسحاق الحضرمي (ت 117هـ)، وتلميذاه هو عيسى بن عمر (ت 149هـ) وأبو عمر بن العلاء (ت 154هـ)، وتلميذا عيسى الخليل بن أحمد (ت 170هـ) ويونس بن حبيب (ت 182هـ)، وتلميذ أبي عمرو بن العلاء أبو زيد الأنصاري (ت 215هـ) والنضر بن شميل (203هـ)، وغيرهم من أصحاب المدرسة البصرية، والكسائي (ت189هـ)، وتلميذه الفراء (ت 207هـ)، أبو عمر الشيباني (ت 206هـ)، وابن الإعرابي (ت 231هـ)، وغيرهم من أصحاب المدرسة الكوفية. ومنهم من أخذ عن قبائل معين لا يتعداها ممن ذكرناهم وهي القبائل السّتة، ومنهم من توسّع ولم يقصرها على المذكور[6].

وأثناء رحلة العلماء لمشافهة الإعراب في البادية، كانت هناك رحلة معاكسة في الاتجاه كان يقوم بها الإعراب الفصحاء من باديتهم إلى الحواضر العلمية وعلى رأسها البصرة والكوفة ومنها بغداد، وقد سمع منهم العلماء وتنافسوا في الأخذ عنهم في مربد البصرة والكناسة والكوفة وغيرها من الأمكنة. ومزج القدامى بين أصحاب الاتجاهين الرّاوي المحض والرّاوي الدّارس إن اللغوي أي الرّاوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه، أما النحوي أي الدّارس فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوي ويقيس عليه، وهما في ذلك أشبه بالمحدث والفقيه فالأول عمله ينحصر في نقل الحديث وضبط صورته كما روي، أما الثاني أي الفقيه فيتلقاه ويتصرف فيه، ويبسط فيه العلل، ويقيس عليه الأشباه والأمثال من الحوادث والأوضاع[7].

وعلى الرّغم من الطّابع الوصفي العلمي الذي وسم المحاولات الأولى من الدّرس اللغوي ممثلا في الرّواية أو جمع اللغة من أعراب البادية ومشافهتهم. يبدو أن الأغراض على خلاف الفعل اتجهت نحو خدمة الدّين والعقيدة الإسلامية. ومن الطّبيعي أن يكون البحث اللغوي عند العرب بدأ في شكل جمع المادة اللغوية (متن اللغة) بطريق المشافهة والحفظ ولكن دون منهج معين في ترتيب المادة المجموعة أو تبويبها، فالارتجال اللغوي الشفاهي للأعراب لم يكن يسمح لهم (العلماء) بالتّثبت

---

6 – الدّراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، مُحَمَّد حسين آل ياسين، ص66.

7 – المرجع نفسه، ص67-69.

والتّدوين والتّبويب في الوقت ذاته، فضلا عن ذلك أن التّبويب والتّصنيف يقتضي الانتهاء من العمل الأول بشكل شبه كامل وإلا لما صح القيام بترتيب المادة وتنظيمها وفق أسس معينة. وبعد أن تم لهم ذلك (جمع المادة) اتجه أهل اللغة إلى تبويب تلك المادة وتصنيفها وتقسيمها كلٌّ بطريقته الخاصة، فهناك من صنفها إلى موضوعات مثل النبات والشجر والإبل والخيل والأنواء ووسمها بلفظ الرّسائل إذ كل رسالة تتضمن موضوعا عن منفصلا عن موضوع بقية الرّسائل، وهناك من اتجه للشعر الجاهلي أو الإسلامي يدونه ويرويه ويشرح مفرداته الصعبة وهناك من اهتم بتسجيل بعض الظواهر التّي لاحظها في بعض القبائل .... وهكذا إلى أن خُتم ذلك بظهور المعاجم اللغوية المنظمة، والتّي يعدّ معجم "العين" للخليل بن أحمد (ت 170 هـ) فاتحتها[8].

ومما لا شك فيه أن البحث النحوي بدأ متأخرا عن جمع اللغة، ذلك أنه لا يمكن للنحوي أن يعقد القواعد ويصنّفها ويستنبط الأسس والنظريات التّي تحكمها دون مادة موضوعة أمامه تمّ جمعها قبل ذلك بالفعل[9].

واللافت للنظر أن الدّراسات اللغوية عموما والمشهور منها كاللغة والنحو والصّرف من الدّراسات التّي اختلطت فيما بينها وأيضا مع غيرها، منذ نشأتها إلى غاية أن استقل كل علم بمصنف يشمله دون غيره، وكان اللغويون الأوائل ممن جمع عددا من العلوم ونبغوا فيها على السّواء. فترى أحدهم عارفا بالغريب والشعر والتّفسير كابن عباس في "غريب القرآن" ... وترى عيسى بن عمر (ت 149هـ) من النحاة والقراء المعروفين وكان أبو عمرو بن العلاء (ت 154هـ) من القراء السّبعة، وممن عنوا بالغريب واللغات والشعر والرّواية إلى جانب عنايته بالنحو وأن قلَّ. ونجد الخليل بن أحمد (ت170هـ) من المهتمين بالرّواية والمشافهة، وصناعة المعجمات، والنحو والتّصريف، ونشأ على يديه علم العروض، وينسب له تشكيل القرآن بالحركات قبل ذلك ... إلخ[10].

---

8 – البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التّأثير والتّأثر، أحمد مختار عمر، ص80-81.

9 – المرجع نفسه، ص81.

10 – ينظر الدّراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، مُحَمَّد حسين آل ياسين، ص78-83.

1- تطوّر الخطّ العربي:

في هذه الجزئية لا يعنينا أصل الكتابة العربية ولا يعنينا ما لحقها من تبدّل في جسم حروفها، وإنما بالدّلالة والنحو من جهة، والنطق الصحيح للألفاظ على مستوى الحركات والسّكون من جهة ثانية، والأصوات (فونيمات) من جهة ثالثة.

رأى بعض المسلمين أن القرآن على ما هو عليه في الصحف من غياب لعلامات الإعراب والشكل أثره في احتمال شيوع اللحن فيه، ومن ثمة تغيير دلالاته ومعانيه. فتصدى زياد بن أبيه (ت 53هـ) وكان يومئذ واليا على العراق بأن طلب من أبي الأسود الدّؤلي (ت 69هـ) أن يعمل على ضبط القرآن صونا له من الغلط، فوضع ما يسمى بنقط الإعراب، واتخذ لذلك كاتبا فطنا من بني عبد القيس، وقال له: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه، و إن ضَمَمْت شفتي فانقط نقطه بين يدي الحرف، وإن كسرتها فاجعل النقطة من تحت الحرف، فإن تبع ذلك غنّة فاجعل مكان النقطة الواحدة نقطتين. وابتدأ أبو الأسود المصحف حتى أتى على آخره، وكان كاتبه يضع نقط الإعراب بلون يخالف لون المداد الذي كتبت به الآيات. وهذه العملية تسمّى "رسم العربية"[11].

وبعد أن أصبحت نقط الإعراب واقعا في قراءة المصحف، برزت مشكلة جديدة تتعلق على وجه الخصوص بغير العرب عندما يرغبون في قراءة المصحف، وهي مشكلة التّمييز بين الحروف المتشابهة في الرّسم الخطي، فضلا عن كون السّليقة لم تعد موجودة عند العربي في تمييزه التّلقائي بين الحروف المعجمة والمهملة، فتصدى لهذه المشكلة الحجاج بن يوسف الثقفي (ت 95هـ) وكان يومها واليا على العراق، فندب للأمر -على خلاف في الرّوايات-نصر بن عاصم الليثي (ت89هـ)، وهو أحد تلامذة أبي الأسود الدّؤلي(ت 69هـ). فوضع نقطا جديدة يميز بها بين الأحرف المتشابهة في الرّسم، جامعا لكل مجموعة بشكل الرّسم فيها ثم أخذ في نقط بعضها من فوق وأخرى من تحت، وجعل لبعضها نقطة واحدة وأخرى نقطتين ولغيرها ثلاثة، وأبقى واحدا من كل مجموعة على حسب

11 - الدّراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، مُحَمَّد حسين آل ياسين، ص53-54.

الأصل مهملا دون النقطة، حتى استكمل عمله وهو معروف اليوم، وسُمّي هذا النقط نقط الإعجام[12].

ويمثل صنيع الخليل بن أحمد (ت 170هـ) المرحلة الثالثة، حيث عمل على تطوير نقط أبي الأسود (ت 69هـ)، وذلك بتغييرها من نقاط إلى خطوط صغيرة أكثر دلالة على الإعراب، فجعل للفتح "ألفا" مائلة فوق الحرف وللضمّ "واوا" صغيرة فوق الحرف أيضا والكسر "ياء" صغيرة تحت الحرف، وللتشديد "شينا" صغيرة، وللتخفيف "خاء" صغيرة، وزاد على ذلك بأن وضع علامات الهمز والرّوم والإشمام[13].

2- النحو عند العرب:

حريٌّ بنا قبل الحديث في النحو العربي ونحاته أن ننظر في مناهج اللغويين العرب في دراستهم للغة. لقد كان البصريون أسبق من الكوفيين في استقراء اللغة وطلب جمعها والنزول بين أهلها من القبائل. غير أنهم اختلفوا في تحديد القبائل التّي تُؤخذ من لهجاتها اللغة. فذهب البصريون إلى شرط الانعزال أي أن تكون القبائل من وسط الجزيرة العربية وهي القبائل السّتة المذكورة سلفا، لأنها بعيدة عن أطراف الجزيرة ومخالطّة الأمم الأعجمية التّي من شأنها أن تفسد كلام العربي الفصيح. وذهب الكوفيون إلى أن العربية هي لسان العرب، فكل قبيلة تكلمت بالعربية سواء أكانت وسط الجزيرة العربية أم على أطرافها يصح الأخذ بلهجتها. وأنّ ما قيل عن فساد ألسنتها بالمخالطّة فمحض افتراض[14].

وساد بين اللغويين والنحاة أداتان وهما السّماع والقياس، أما السّماع فهو الأخذ المباشر للمادة اللغوية عن الناطقين بها، ولفظ المباشرة هو ما يفرق السّماع عن الرّواية ذلك أن هذه الأخيرة يتوسط فيها نص أو صوت بين الرّاوي السّامع والمروي عنه، وعليه الرّواية عامة والسّماع خاص. وأما القياس

12 - الدّراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، مُحَمَّد حسين آل ياسين، ص54-55.

13 - ينظر المرجع نفسه ، ص55.

14 - ينظر المرجع نفسه ، ص327-329.

بحسب الاصطلاح تقدير الفرع بحكم الأصل ولابد له من أربعه أركان: أصل وفرع وعلا وحكم، ويعدُّ القياس من الأسس المنهجية في دراسة اللغة، وقد أخذ به كل اللغويين على اختلاف مذاهبهم بصريون وكوفيون، وإن اختلفوا في نسبة توظيفه، وكان البصريون أكثر من غيرهم أخذا به، وكان عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت 117هـ) أول من أسس القياس واستخدمه في اللغة، والقياس في أوّل أمره عند الأوائل من مستخدميه يقوم على السّماع والرّواية[15].

أما المادة اللغوية وتحديدا ما يسمي بالشواهد فموقفهم منها بحسب طبيعتها. إن القرآن عند اللغويين جميعا يمثّل أعلى الشواهد مرتبة، وما تعلق به من قراءات ففي البدء وحينما كان بعض اللغويين من القرّاء عدّت كل القراءات باختلافها حجة دون مفاضلة، والقاعدة تؤخذ منها، ولكن البصريين منذ سيبويه (ت 180هـ) حاولوا إخضاع تلك القراءات لقواعدهم وأقيستهم حتى أنهم وصفوا ما خالف ذلك بالشذوذ، والبصريون بهذا لم يخالفوا الكوفيين فحسب وإنما أيضا عددا من القراء. أما الكوفيون فهم على خلاف ذلك فقد أخذوا بكل القراءات، ومنطلقهم كان بناء على عدم التّعارض مع أسسهم المنهجية في دراسة اللغة، فهم يرجحون السّماع والرّواية حين يصطدمان بالقاعدة المقيسة. وكان موقفهم من الحديث الشريف أشبه بموقفهم من الاستشهاد بالقراءات، مع العلم أن اللغويين الأوائل بصرين وكوفيين على السّواء لم يستشهدوا بالحديث الشريف. وبعد ذلك ظهر أن البصريين على وجه الخصوص رفضوا شاهد الحديث في اللغة لسببين: الأول: أن الكثير من الأحاديث رويت بالمعنى دون اللفظ، والثاني: أن الكثير من رواتها (الأحاديث) كانوا من الأعجام، فوقع اللحن فيما رووه، وكان موقفهم من الشعر كموقفهم من مصادر اللغة الأخرى إلى حدٍّ بعيد. واشترطوا فيه ليكون في منزلة الشاهد: التّقدم في العصر، والبداوة وعلم قائله بالعربية، وبصحة نسبته إليه، وعليه قسّم اللغويون الشعراء إلى طبقات:

الطّبقة الأولى: الجاهليون: أمثال امرئ القيس وزهير والنابغة ...

15 – ينظر الدّراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، مُحَمَّد حسين آل ياسين، ص341-344.

الطّبقة الثانية: المخضرمون: أمثال حسان بن ثابت وكعب بن زهير، والحطيئة.

الطّبقة الثالثة: الإسلاميون: أمثال الفرزدق وجرير والأخطل وذي الرّمة[16].

وكان من أسسهم المنهجية التّقدير والتّأويل، وكان في النحو أظهر منه في اللغة، وقولهم بذلك نابغ من اعتبار وجود شكل أو صيغة مثال، بحيث متى وردت ناقصة أو دون مثالها تم تقدير محذوفها وتأويل معناها. كما كان اعتقادهم بسببية التّغير والتّبدل عاملا في الاعتقاد بوجود العامل، وحتى العامل في منع العامل كقولهم يبطل عمل إن وأخواتها حين تقترن بهن (ما) الحرفية، كما اعتمدوا التّعليل وتوسعوا في ذكر العلل إلى حد التّفلسف دون الأخذ بعين الاعتبار أن اللغة وقائع تصح بالإثبات المادي لا بالنظر والعقل، وخاصة عند المتأخرين حيث أن الدّراسات اللغوية جميعها أصبحت مسيجة بما تُرجم من علوم اليونان في القرن الرّابع الهجري[17].

وبعد هذه التّوطئة العامة التّي تغنينا عن قول الكثير بعد هذا. ما من شك أن كتاب "الكتاب" لسيبويه من أعظم ما أُلّف في النحو العربي، ولا شك أنه يُنسب إليه وليس في ذلك خلاف، وعظمته ناشئة من كونه استغرق كل اللغة بقواعده، فليس النحو عنده باب من أبوابه ولا فصل من فصوله أو رسالة من رسائله، كما أنه لم يترك لمن جاء بعده أن يزيد عليه أو له، بل منتهى ما استطاعوا فعله بيانه وشرحه، وما من شك عند الكثير من اللغويين أن ما يوجد في "الكتاب" هو مجموع الآراء النحوية المعاصرة له والسّابقة، ولعل ذكر الخليل بصريح اللفظ دليل في ذلك. كما أنه ليس من المعقول أن يولد الأثر كاملا دون افتراض ما جعله كذلك. كما أنه من المناسب الإشارة إلى أن كتاب "الكتاب" لم يكن في النحو متمحضا، وإنما شمل إلى جانب ذلك الصرف والأصوات[18].

---

16 – ينظر الدّراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، مُحَمَّد حسين آل ياسين، ص348-357.

17 – ينظر المرجع نفسه ، ص365-372.

18 – ينظر البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص123-126، وأعلام الفكر اللغوي (التّقليد اللغوي العربي)، كيس فيرستيج، ص68-74.

وبعد ذلك صار نحاة البصرة والكوفة جنبا إلى جنب وتنافسا في البحث، وأصبح لكل فرقة مدرسة ينسب إليها، ويُؤلف في إطار مبادئها. فمن نحاة البصرة نجد الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة (ت 215هـ)، وقطرب (ت 206هـ)، والمازني (ت 249هـ)، والمبّرد (ت 285هـ)، ومن نحاة الكوفة نجد الكسائي (ت 189هـ)، والفّراء (ت 207هـ)، وثعلب (ت 291هـ)، وابن السّكيت (ت 244هـ). وظهر بعد هذه الفترة علماء لم يتعصبوا أو يميلوا إلى إحدى المدرستين ضمن ما يسمى المدرسة البغدادية. وهي مدرسة قامت على التّرجيح بين آراء البصريين والكوفيين، ومن أشهر علماء هذه المرحلة حتى نهاية القرن الرّابع: الزّجاج (ت 310هـ)، وابن السّراج (ت 316هـ)، والزجاجي (ت 337هـ)، والأخفش الصغير (علي بن سليمان) (ت 315هـ)، وابن ولاّد (ت 332هـ)، وأبو جعفر النحاس (ت 338هـ)، وأبو سعيد السّيرافي (ت 368هـ)، وأبو علي الفارسي (ت 377هـ)، وأبو الحسن الرّماني (ت 384هـ)، والزبيدي(ت 379هـ)، وبعد القرن الثالث ظهرت إلى جانب المدرسة البغدادية مدارس نحوية أخرى في مصر والمغرب والأندلس[19].

وأميز ما به توصف كل المدارس المذكورة سلفا أنها مدارس عاملية أي تقوم تقديراتها وتأويلاتها وتعليلاتها على ما يسمى العامل. فجاء ابن مضاء القرطبي (ت 592هـ) الذي ينتمي إقليميا إلى مدرسة الأندلس بكتاب صغير الحجم جليل الأهمية عنوانه "كتاب الرّد على النحاة" وغرضه من اسمه يكفيه فهو نقد وهدم لمرتكزات كل النحاة بغض النظر عن مدارسهم وقيمتهم المعرفية في التّخصص. والواضح من مضمون الكتاب أنه لا يعترف بوجود العامل أو بوجود المؤثر الفعلي لفظا أو معنى في التّغيرات التّي تطرأ على الحركات الإعرابية للكلمات ضمن الجمل وكونه من أنصار ابن حزم الظاهري رفض أيضا الإضمار والتّقدير، والقياس النحوي[20].

19 – ينظر البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص126-127.

20 – ينظر أعلام الفكر اللغوي (التّقليد اللغوي العربي)، كيس فيرستيج، ص199-210.

3- علم الأصوات عند العرب:

يظهر أن علماء العربية الأوائل من اللغويين والنحاة لم تكن الدّراسة الصوتية عندهم مستقلة. فقد ظهرت عند النحاة مختلطة بالنحو والصرف، فهذا سيبويه نجد عالج "الإدغام" في نهاية "الكتاب" وكذلك فعل المبرد (ت 285هـ)، في كتابه "المقتضب"[21].

وفي الإطار ذاته عالج أصحاب المعاجم الأصوات أو بعض المشكلات الصوتية في مقدمة معاجمهم، أو في ثنايا المادة اللغوية. والظاهر أن للدراسة الصوتية هنا علاقة بطريقة ترتيب المادة اللغوية (المداخل المعجمية) صوتيا أو بحسب مخارج الحروف كما فعل الخليل بن أحمد (ت 170هـ) في معجم "العين"[22].

وأسهم علماء التّجويد بقدر لا يُجحد في هذا المجال، ويكفي أن اسم العلم يقوم أساسا على التّصويت، كما أسهم العلماء المهتمين بالقراءات القرآنية في ذلك الأمر لكون بعض أوجه القراءة لها صله بمخارج الحروف أو صفاتها[23].

وأدلى أصحاب التّأليف في إعجاز القرآن والبلاغة بدلوهم في البحث في القضايا الصوتية تلك التّي لها علاقة بأغراضهم من التّأليف كتنافر الحروف وتآلفها، واستتبع ذلك من الحديث حول المخارج والمداخل لكونها من أسباب المذكور من التّآلف والتّنافر الصوتي. كالرّماني (ت 384هـ) في رسالته "النكت في إعجاز القرآن" وابن سنان الخفاجي (ت 466هـ) في كتابه "سر الفصاحة" وأبي بكر الباقلاني (ت 403هـ) في كتابه المشهور "إعجاز القرآن"[24].

---

21 - ينظر البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص93، وينظر سيبويه، الكتاب، تح عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة-مصر، ودار الرّفاعي، الرّياض-السعودية، ط2، 1982م، 4/431-484.

22 - ينظر البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص93-94، وينظر العين، الخليل، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 2003، 1/34-44.

23 - ينظر البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص95-96.

24 - ينظر المرجع نفسه ، ص96-98.

وشارك أصحاب الموسوعات الأدبية في إغناء الدّرس الصوتي لكن دائما ضمن مباحث أخرى لا صلة لها بالمستوى الصوتي، وأبرزهم الجاحظ (ت 255هـ) في كتابه "البيان والتّبيين" وتحديدا في تناوله الأسباب المختلفة لعيوب النطق ونسج الكلمة العربية[25].

أما أول من أفرد الدّراسة الصوتية بكتاب مستقل فهو ابن جني (ت 392هـ) سماه "سر صناعة الإعراب". وتناول فيه حروف الهجاء وترتيبها ووصف مخارجها، كما تناول صفات الأصوات في أقسام وباعتبارات مختلفة، كما عرض للصوت في داخل الكلمة وما يطرأ عليه من تغيير يؤدي به إلى الإعلال أو الإبدال أو النقل أو الحذف، كما لم يغفل علاقة تآلف الحروف وعلاقتها بفصاحة اللفظ المفرد. ويعدّ ابن جني (ت 392هـ) إلى جانب كونه صاحب التّأليف المستقل أنّه أوّل من استعمل مصطلح "علم الأصوات" للدلالة على هذا الحقل المعرفي في الدّراسة اللغوية، فضلا عن كونه أوّل من أشبع هذا الحقل دراسة وبحثا[26].

وفي إطار التّميز الذي طبع هذا اللون من الدّراسة عند العرب القدامى لا يفوتنا أن نذكر الطّبيب الفيلسوف ابن سينا (ت 428هـ) الذي قدّم رسالة في علم الأصوات بعنوان "أسباب حدوث الحروف"، والظاهر من خلال فصولها أو مباحثها أنها فريدة لكونها عبارة عن دراسة عضوية وتشريحية، عضوية لكونه وصف فيها العملية العضوية في إنتاج كل حرف من حروف العربية وصفا مفصلا ودقيقا، وتشريحية لكونه خصّص فاصلا في تشريح الحنجرة واللّسان، كما أنه من أسباب فرادتها أنها تناولت (الرّسالة) الأصوات فيزيائيا، وذلك في الإشارة إلى كيفيات إنتاج تلك الأصوات اللغوية بحركات عضوية أو حركات جسمانية من غير أعضاء الجهاز النطقي أو من غير أعضاء جسم الإنسان[27].

---

25 – ينظر البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص98-100، وينظر الأصل البيان والتّبيين، الجاحظ، تح: درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت –لبنان، دط، 2001م، 1/30-32، 1/46-52، 1/58.

26 – ينظر البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص100-101، وينظر الأصل سر صناعة الإعراب، ابن جني، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ط1، 2000م، الكتاب كله.

27 – ينظر البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص101-102، ورسالة أسباب حدوث الحروف، ابن سينا، تح: مُحَمَّد

4- المعجم عند العرب:

مما لا شك أن الرّسائل أو الكتب ذات الموضوع الواحد أو بعبارة أخرى ذات الحقل الدّلالي الواحد سبق ظهورها المعجمات بنوعيها. ويعد معجم "العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ) أوّل معجم عربي، وهو من نوع معجمات الألفاظ وللإشارة فحسب أنه لم يطلق على المعجم اسم المعجم إلّا في أواخر القرن الرّابع الهجري، أما قبل ذلك فهو كتاب. وكان منهج الخليل يتفق وهدفه من وضعه (المعجم)، فضبط اللغة وحصرها جعله يتبع خطوات علمية مدروسة، بدأها بترتيب الحروف بحسب مخرجها من أقصى الحلق إلى الشفتين، ثم بتقسيم الأبنية بعد أن وجد أن كلام العرب مبني على أربعة أصناف على الثنائي والثلاثي والرّباعي والخماسي، ثم قسّمها إلى صحيح ومعتل، وفرّق بينهما في كلّ بناء، وأخيرا اهتدى إلى تقليب اللّفظة على الأوجه الممكنة لها وليس هناك من طريقة تستغرق كل ألفاظ اللغة كطريقة التّقليب الخليلية، فهي إلى جانب أنّها تعرّفنا بكل الصيغ المستعملة تعرّفنا بالصيغ المهملة، ولقد اكتفى الخليل بشرح وتعريف ما استعمل وأهمل ما أُهمل[28].

إن الاكتفاء بذكر الخليل بن أحمد فقط في هذا النوع من التّأليف (معجمات الألفاظ) للإفادة السّبق على غيره، فمن هم بعده غيروا في طرق التّرتيب. أمّا الاختلاف البيّن في فكرة التّرتيب عن تأصيل الخليل فهو الوارد بما تُسمى معجمات المعاني. وفكرة هذا النوع (فكرة) من المعاجم الذي يرتب ألفاظ بحسب حقولها الدّلالية كانت أسبق في الوجود أو معاصرة للنوع الأول (معجمات الألفاظ)، غير أنها كانت عبارة عن كتيبات صغيرة وتشتمل على موضوع واحد فقط. أمّا أوّل معجم معاني كان أوفى وأشمل من غيره في مجاله وفي تاريخ اللّغة العربية فهو المخصص لابن سيده (ت 458هـ)، وكفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ لابن الأجدابي (من علماء القرن الخامس الهجري)، وكان على

حسان الطّيان ويحي مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سوريا، دط، 1982، بحسب تقديم شاكر الفحام للرسالة.

28 – ينظر الدّراسات اللغوية عند العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مُحَمَّد حسين آل ياسين، ص222، 245-249، وينظر البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص180-193، وينظر أعلام الفكر اللغوي (التّقليد اللغوي العربي)، كيس فيرستيج، ص51-56.

خلافه في الطّول. وقبلهما "كتاب فقه اللغة وأسرار العربية" لأبي منصور الثعالبي (ت 429هـ). وإن كان الإطلاق يصحّ على جزئه الأوّل وهو الأكبر حجما[29].

ويليق أن نختم هذا العنوان بمخطط توضيحي لأنواع المعاجم وطرق ترتيبها كما وردت عند أحمد مختار عمر في كتابه البحث اللغوي عند العرب صفحة 177.

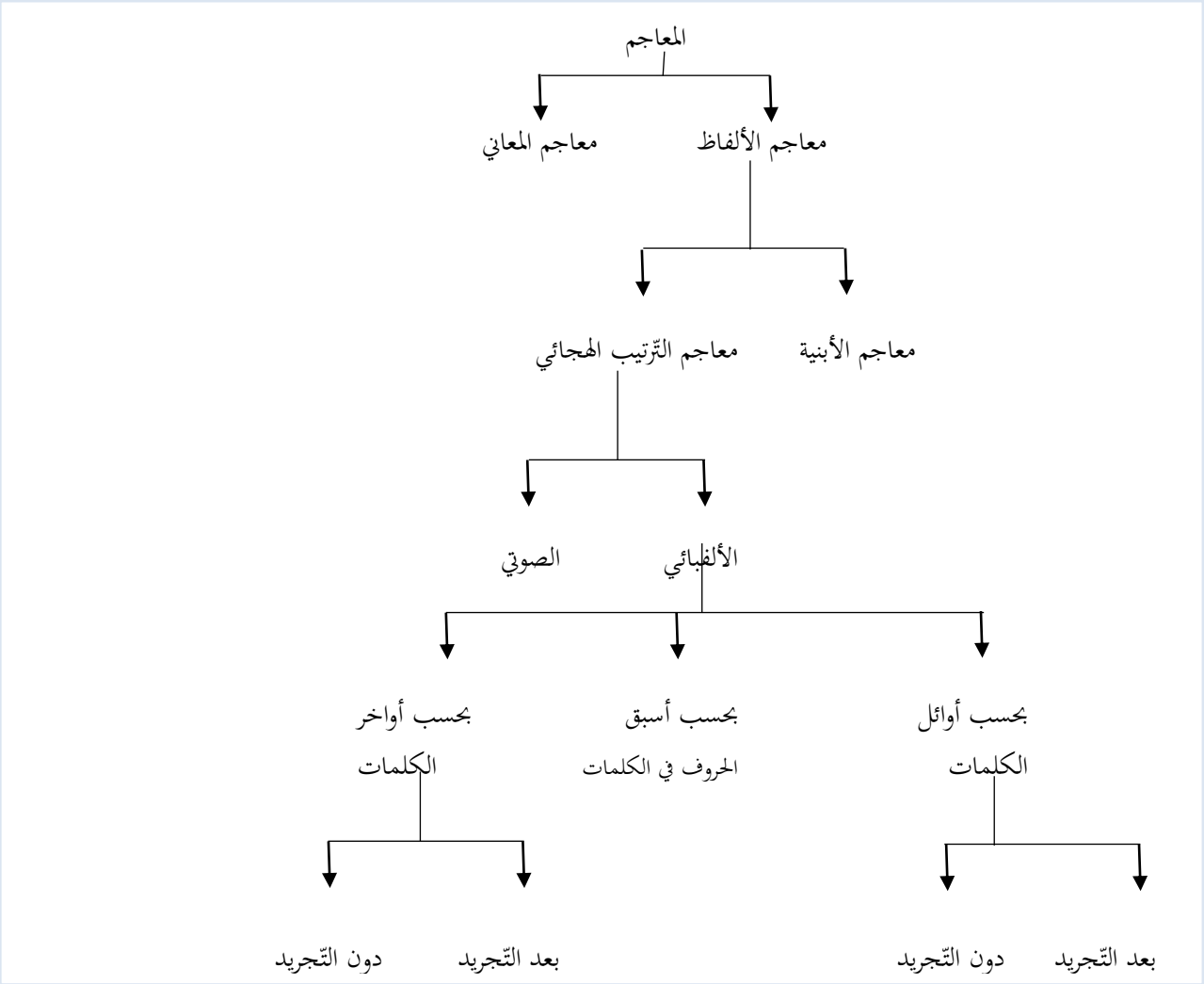

5- اللغة و الدلالة في مؤلفات أصول الفقه:

ما من شك أنّ مؤلفات علماء أصول الفقه مليئة بالموضوعات ذات الصلة بعلوم اللغة بوجه عام والدّلالة بوجه خاص، والعلماء في ذاتهم يحرصون على ذكر تلك العلاقة وأهميتها في مجال بحثهم. وترد القضايا اللغوية كمقدمات ضرورية في الدّراسة الأصولية كما ترد ومغفلة الإشارة ضمن المتن

29 - ينظر البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 288-294.

كأدوات بحث وتحليل للنصوص التّشريعية، فنادرا لم يخلو كتاب من إغفال بعضها لضرورة منهجية أو تعليمية، أمّا أن يخلو منها تماما فذلك لا يجعل من العلم أصول فقه على الإطلاق، ومن بين الموضوعات اللغوية مباحث نشأة اللغة والوضع اللغوي، والمشترك والتّضاد والتّرادف، والحقيقة والمجاز وأنواع الكلمة من فعل واسم وحرف، ودلالة العام والخاص والعموم والتّخصيص، ودلالة الإطلاق والتّقييد، والمجمل، والبيان والمبَيَّن والمبَيِّن، والأمر والنهي والخبر ... ومن الدّراسات الحديثة ما يفيد ذلك كما أفادته المتون في ذاتها[30].

ثانيا– البحث اللساني في القرن التّاسع عشر:

لا يعني تناول البحث اللساني في القرن 19 م حكم مضمن مفاده عدم وجود دراسات لسانيات من تاريخ البحث اللساني عند اليونان إلى غاية التّاريخ المذكور، أو وجودها مع عدم تأثيرها في الدّرس اللساني في القرن التّاسع عشر وكذلك العشرين. ولكن لضرورة منهجية الأولى أن هذه المحاضرة وتلك التّي قبلها تروم الاختصار، والثانية أن القرن 19 هو القرن التّأسيسي والسّياقي لأفكار القرن العشرين اللسانية. وهو المراد الأول من هذا المقرر أو المنهاج. والثالثة أن المعرفة تراكمية إذ لا يعقل أن تتأتى خوارق البحث وبارق النتائج دون أن يكون فيها مما قبلها من المعارف تأثير.

إن أهم ما ميز البحث اللساني في هذه الحقبة الاعتماد على المعطيات اللسانية الملموسة. وظهور النزعة التّاريخية، وكان اكتشاف اللغة السّنسكريتية وعلاقتها باللغات الأوروبية أثره في ظهور

30 – ينظر ذلك أي كتاب من أصول الفقه، وكتاب التّصور اللغوي عند علماء أصول الفقه، السّيد أحمد عبد الغفار، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية–مصر، دط، 1996، وكتاب اللغة العربية في نظر الأصوليين، عبد الله البشير مُحَمَّد، إدارة البحوث بدائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري، دبي–الإمارات، ط1، 2008، ورسالة الدّكتوراه مخطوطة بعنوان سيف الدّين الآمدي وجهوده في الدّرس اللغوي، لعبد الرّحمن مشنتل، بجامعة باجي مختار، تاريخ المناقشة 2015/06/11م، والباب الثاني من كتاب علم الدّلالة، منقور عبد الجليل، اتحاد الكتاب العرب، دمشق–سوريا، دط، 2001، ص107-239.

مجال معرفي جديد هو النحو المقارن. فضلا عن دخول المعايير النفسية إلى النظرية اللسانية وتأثيرها الواضح فيما بعد في صياغة التّصورات اللسانية الأساسية لأجيال كثيرة[31].

من المسلم به في مجال علم اللغة أن يقال إن القرن التّاسع عشر كان بحق قرن الدّراسات التّاريخية والمقارنة، وبوجه خاص للغات الهندو أوروبية. ويذكر أن هناك أربعة من العلماء المعروفين في مجال البحث اللساني المقارن هم: دان.ر.راسل (1787-1832) Dane.R.Rask، والألمانيان: ج.جريم Jacob Ludwig Karl Grimm (1785–1863م) وفرانز بوب Franz Bopp (1791-1867) ، وو.فون هومبولت Wilhelm Von Humboldt (1767-1835)، ويمكن القول أن الدّراسة المقارنة والتّاريخية للأسرة الهند وأوروبية بدأت مع راسل وجريم، وظهر مصطلح هندو جرمانية لأول مرة عام 1823، واستعمله بوب عام 1833م، وورد مصطلح هندو أوروبية لأول مرة في الإنجليزية بداية من عام 1814م[32]؛ غير أن الألماني فرانز بوب Franz Bopp (1791-1867) يعد هو المؤسس للنحو المقارن ليس لأنه ترك أثرا مكتوبا يتضمن مقارنة السّنسكريتية ببعض اللغات الهندو أوروبية، إذ أن فكرة القرابة السّنسكريتية واللغات الهندية والأوروبية الأخرى كانت معروفة قبله. فويليام جونز William Jones تحدث عنها في القرن الثامن عشر. ولكن فرانس بوب كان أوّل من اكّد أن قضية الرّوابط الظاهرة بين اللغات الهندية والأوروبية يمكن أن تصبح موضوعا لدراسة خاصة[33].

وهناك من يذّكر لهذا اللون من الدّراسة المسماة أيضا "النحو المقارن" لخطتين مختلفتين في النحو المقارن مجال للدراسة وتوجّه للسانيات غرضه إقامة صلات القرابة الموجودة بين لغتين فأكثر، متباعدة في الزمان، وفي المكان وهو الغالب. ولم يتحوّل النحو المقارن إلى لسانيات تاريخية (اللحظة الثانية) إلا ابتداء من سنة 1860 على وجه التّقريب، ببرنامج شديد الوضوح يتمثل في إعادة رسم

31 – اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ص45-47.

32 – موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، ر.هـ.روبنز، ص247.

33 – اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ص49.

مسارات التّطور وفواصله البعيدة الطّلب للغات ضمن علاقات التّبعية أو الانتساب. ويكون ذلك بين لغة راهنة أو متأخرة ولغة سابقة على تلك زمنيا وثقافيا[34].

كما ظهر في هذا القرن المذهب الطّبيعي البيولوجي عند أوجست شلايشر August Schleicher (1821-1886)، وهو مذهب يظهر فيه أثر داروين Charles Robert Darwin (1809-1882م) والعالم شلايشر هو أيضا من أبرز علماء اللغة المقارن. ومنهجه يقوم على الفكرة القائلة بأن اللغة كانت كائنا حيا، مستقلا بذاته عن الإنسان، وأن اتجاه تطورها ومساراته محدّد بقوانين بيولوجية عامة. وأن اللغة كالكائنات الحية الأخرى فهي تولد وتعيش لفترة محددة ثم تهب وجودها إلى لغة أخرى تنسل منها، وهكذا تواصل وجودها في كلّ فرع يتولد من أصل (فرع لسابق). وهكذا يكون للغة شجرة سلالية[35].

ومن أبرز أعلام هذه المرحلة فيلهلم فون هامبولدت Wilhelm Von Humboldt (1767-1835). ويظهر تميزه في كونه لم يتوقف عند حدود الظاهرة اللغوية كونها ظاهرة دياكرونية بل تجاوزها إلى محاولة إبراز المادة اللسانية التّي ينتمي إلى فترة زمنية محددة، وأصرّ على أن المظهر الثابت للغة ظاهري فقط، كما أولى اهتمامه بعلاقة الارتباط بين اللغة والفكر، وخصّص ذلك في أن هناك توافقا بين بنية اللغة والعقلية القومية، إذ أن اللغة عبارة عن نتاج متميز لروح أمة بعينها، وهو قول يستبطن نظريته المسماة "نظرية رؤية العالم"[36].

وفي هذا القرن ظهرت فكرة جديدة حول اللغة مفادها أن اللغة ظاهرة نفسية، وصاحبها هو هـ.شتاينتهال Heymann or Hermann Steinthal (1823-1899م). والقادح في مذهبه هذا يعود إلى تأثير نظريات هامبولدت الواضح. أما المعرفة بالظواهر النفسية فقد كانت مركزة على آراء عالم

34 - النظريات اللسانية الكبرى (من النحو المقارن إلى الذرائعية)، ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، ص15.

35 - اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ص57، وينظر موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، ر.هـ.روبنز، ص257-259.

36- ينظر اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ص65-66، وموجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، ر.هـ.روبنز، ص252-255، وينظر النظريات اللسانية الكبرى (من النحو المقارن إلى الذرائعية)، ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، ص26-27، وأعلام الفكر اللغوي (التّقليد الغربي من سقراط إلى سوسير)، روي هاريس وتولبت جي تيلر، ص227-230.

النفس والتّربية يوحنا فريديك هربرت Johann Friedrich Herbart (1776-1841). وتبنى من أفكاره ما يسمّى "النّظام الاستدعائي"، فالأفكار تنبثق من بعضها وفقا لتداع غير مقصود، وكان نقده لسيطرة المنطق على النحو، وطلب البديل في وصف الحقائق النحوية من منطلق نفسي أهم ما ماز أعماله، وجمع إليه الأنصار. ووسع فكرة همبولدت القائلة بالعلاقة بين روح الجماعة ولغتها إلى العلاقة بين الحدث الكلامي الفردي ونفسية المتكلم. وعنده أن الكلمات حينما تُنطق تُطبع بتجربة المتكلم الشخصية، وتتلون بنفسيته الخاصة، بل إن الكلمات ليس لها معنى إلّا حين ينطق بها[37].

ونختم هذا القرن بالإشارة إلى النحاة المحدثين أو النحاة الجدد، ففي السّبعينيات من القرن التّاسع عشر ظهرت جماعة من العلماء الألمان الشبان في جامعة لايبزج بألمانيا مهدوا لمرحلة جديدة في علم اللغة التّاريخي –المقارن ومن بينهم كارل بروجمان Karl Brugmann (1849-1919)، وهو من علماء فقه اللغة القديم والدّراسات الهندو جرمانية، وهرمان باول Hermann Paul (1846-1921) عالم الدّراسة اللغوية الألمانية والهندو جرمانية والذي انصرف على خلاف البقية إلى الدّراسة النظرية للقضايا المنهجية، وهرمان أوستهوف H.Osthoff (1847-1909)، وعالم الدّراسات السّلافية أوجيست ليزكين August Leskien (1840-1916). وتُعد هذه الجماعة بتسمية "الجدد" أو "المحدثين" حركة علمية ضد الأفكار المحافظة للسانيين القدامى، وأميز ما عرفوا به واشتهروا أنّ لهم الفضل الأكبر في إضفاء الانضباط التّام والصارم على المنهج التّاريخي المقارن، فضلا عن ذلك أنه ما من جيل أصر على الاتساق المطلق للقواعد الحاكمة على وقوع الظواهر الصوتية كإصرارهم. وكانوا على قناعة تامة باتساق القوانين الضابطة للتطور اللغوي، وأن تلك القوانين مستقلة عن فعل الإنسان وتأثيره الواعي[38]. وهناك من أضاف إلى مجموعة الأربعة الأساسية وهم من الألمان، مجموعة غير ألمانية ولكنها أساسية أيضا ذكر منها: الدّنماركي كارل فرنر Karl Werner (1846-1896)، والبولندي

37 – ينظر اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ص73-74، وتاريخ علم اللغة الحديث، جرهارد هلبش، ص34-35.

38 – ينظر اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ص83-88، ومناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي، بريجيته بارتشت، ص31-45، وتاريخ علم اللغة الحديث، جرهارد هلبش، ص28-33.

جان بودوين دي كورتيني Jan Baudouin de Courtnay (1845–1929)، والسّويسري فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure (1857–1913)[39].

39 – ينظر مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي، بريجيته بارتشت، ص31.